كينونة اللغة في الفكر الغربي

دكتور / محمد علي الكردي

كينونة اللغة في الفكر الغربي

د. محمد علي الكردي

يذهب تودوروف ، أحد مشاهير النقاد الفرنسيين المعاصرين، إلي أن "الأدبية"،أي الخصوصية الأدبية للخطاب، بدأ مع تضخم ما يُسميه "حرفية" اللغة وانحسار وظيفتها المألوفة كأداة للتخاطب والاتصال ويقصد تودوروف بالحرفية الإهتمام باللغة من حيث هي لغة، أي الإهتمام بطرائق تركيبها وأساليبها التعبيرية، وبالصور البيانية المختلفة التي تتميز بها وتتسم وتطور عن طريقها لا كقوالب مفروضة علي المادة الأدبية وإنما كجزء أساسي تقوم عليه هذه المادة. ولقد عني بتطوير هذا المفهوم واستغلاله في ممارساتهم الأدبية رواد الرواية الجديدة في فرنسا، وعلي رأسهم كلود سيمون وآلان روب - جرييه وروجيه بنجيه وجان ريكاردو وغيرهم. ومن المعروف أن جزءا كبيرا من روايات هذه "المدرسة" يقوم علي ميكانزمات توليد سواء علي المستوي الصوتي، ومايتبعه هذا المستوي من انتاج التماثلات الصوتية، علي شاكلة السجع والجناس، والتلاعب بها (لقد تبين أن هناك علاقة بين بعض هذه الكتابات ونظريات اللعب)، أو علي مستوي تداعي المدلولات والمعاني باستخدام ميكانزمات الاستعارة والكناية هذا بالإضافة إلي ضروب عديدة من "الموضوعات الكتابية" التي تستمد من مواد أو مجالات فنية مختلفة كالسينما والرسم والتصويروالطباعة والإعلان، الأمر الذي يوفر للكاتب مخزونا كاملا من فنون العرض وأساليب الإخراج اللازمة له لأداء "حرفته" أو صناعته علي أكمل وجه.

إلا أن الإهتمام باللغة من هذا المنظور الصناعي البحت ،أي لمادة خام لها حضورها القوي وكثافتها الخاصة بها، لايمكن أن يمثل، في نظرنا، مجرد اختيار

يرتبط بمزاج الكاتب، أو بشكل مجرد صدفة لايمكن تبريرها أو تعليلها. في الواقع، إن مفهوم اللغة الذي يتبلور هنا- ولا أريدأن أتطرف إلي دور سوسير في إبراز هذا المفهوم - قد يرتبط بمفهوم آخر بالغ الأهمية في مجال الممارسات الأدبية، وهو مفهوم "الكتابة"(l'écriture)كما بلوره وصقله "رولان بارت" لي دراسته المشهورة "الدرجة الصفر في الكتابة"[١]. وهكذا نستطيع بفضل "بارت" أن نعرف أن الكتابة هي ضرب من الاستخدام اللغوي، الذي يشكل مستوي خاصا لايطابق من جهة، مفهوم اللغة عند "سوسير" كنسق رمزي جماعي سابق علي الكلام، ولايصل، من جهة أخري إلي مستوي الأسلوب كخاصية شبه مزاجية تعبر عن الطبيعة الحميمة للكاتب، وعن فرديته المطلقة في تعامله مع عناصر اللغة من ثم، يمكن القول بأن الكتابة هي ماينطبق علي مجموعة من التكوينات اللغوية التي تتميز كل منها بتركيبتها الخاصة، والتي لايمكن فصلها، كما يذهب بارت، عن رؤية الكاتب لممارسته لعملية الكتابة. إن هذه التكوينات اللغوية التي تمثل مجموعة من الأدوات والممارسات والطرائق التعبيرية، غالبا ما تنشأ في ظروف تاريخية محددة، إلا أن هذا لايمنع من تعميم بعض مقوماتها، أو من تشكيل بعض مكوناتها في صورة أنماط كتابية عامة مثل النمط الكلاسيكي أو الرومانسي أو الرمزي أو الواقعي، نظرا لما تمثله هذه الأنماط من استعدادات واتجاهات أساسية في تركيبه النفس البشرية.

إلا أن هذا الاهتمام بتحديد خصوصية اللغة وإبراز ميكانزماتها من خلال مستوي الإنجاز الأدبي غالبا ماكان يعبر عن رأي بعض الكتاب والنقاد الذين يرون في تغيير منظورهم للغة جزءا لايتجزأ من عملية التحديد الشامل الذي يسعون إلي تحقيقه، إذ أنه ليس من المعقول، في نظرهم، تثوير الرؤي التقليدية في الرواية أو الشعر أوالمسرح من غير تثوير اللغة لحاملة أو المشكلة لهذه الرؤي، لأن الكاتب يتعامل،في نهاية الأمر، مع اللغة ومع آليات الكتابة

التي تعد الرؤى تتاجا لها أكثر مما تكون هذه الأخيرة مضامين تعبر عنها اللغة كما يذهب الفكر التقليدي السابق على إنجازات "سوسير" (Saussure). غير أن هذا لايفسر لنا، إذا استبعدنا آراء الكتاب واهتماماتهم، كيف انبثق هذا المفهوم "الغريب" الذي يضفي على اللغة "كينونة" خاصة بها، كينونة أعمق وأكثف من وظيفة الاتصال المنوطة بها، كينونة فرضت وجودها كقوة خارجية على الإنسان

وهنا لابد لنا من الرجوع إلى تفسيرات "ميشيل فوكو "الأركيولوجية" لتتبين الظروف الموضوعية التي أدت إلى ظهور هذا المفهوم الثوري الذي يعبر عن تحولات عميقة في طبقات الثقافة الغربية أو الغربية. ويبدو أنه لكي نفهم هذه الظروف، علينا أن نرجع بخيالنا، بعض الشيء، إلى عصر النهضة، ففي هذا العصر، كما يذهب الكاتب، تقوم لغة الفكر على مقولة أساسية هي مقولة "التشابه"التي تعمل كمبدأ تنظيمي عام لمجمل الحقول المعرفية. وتناط بهذه القاعدة التشابهية العامة ومايتفرع عنها من مفاهيم ملازمة لها مثل "التوافق" و"التنافس"و"التجانس"و"التعاطف"، عملية كشف العلاقات الخفية الكامنة بين الموجودات على أساس العلاقات والرموز الظاهرة التي يوفرها لنا عالم الطبيعة إلا أنه لا كشف من غير فن خاص للتفسير والتأويل، من ثم يقول لنا الكاتب :

> "إن القرن السادس عشر قد جمع بين علم للعلامات (سيميولوجيا) وبين فن للتأويل (هرمينوطيقا) في صورة من التماثل والتشابه، بحيث أصبح البحث عن المعنى هو القاء الضوء على المتشابهات، والبحث عن قانون العلامات هو اكتشاف الأشياء القابلة للتشابه، ومن ثم يكون فن التأويل هو نحو الموجودات والكائنات."(٢)

إلا أن هذه الأرضية المعرفية التي تشكلها اللغة في القرن السادس عشر

سوف تحول، بطريقة جذرية، إبان العصر الكلاسيكي، بحيث يتغير "كيان" اللغه من طبيعته الثلاثية، التي تعتمد علي اتصال "دال(صورة العلامات) بمدلول" (مضمون هذه العلامات)عبر "ظروف موابية (التشابه الذي يمكن اكتشافه بين الأشياء والعلامات) إلي تركيبه ثنائية لاتتعدي ارتباط دال بمدلوله ومعني ذلك، في نظر الكاتب، هو نهاية التطابق القائم بين اللغة والعالم، وتحرير العلامات من ارتباطها بالطبيعة المباشرة ومن الشيئية حتي يمكن للغة أن تصبح مجرد نسق اعتباطي من العلامات يقوم علي نظام عام للتمثيل.
(représentation)

لقد تحددت العلامة اللغوية إذن، بعد انسلاخها عن عالم الأشياء والطبيعة خلال القرن السابع عشر، بوظيفتها كحدث معرفي بحت، فهي لم تعد تستمد طابعها الاحتمالي أو اليقيني من الطبيعة، وإنما من مكانتها داخل إطار معرفي. لقد أصبحت تعبر عن "علاقة إبدال ممكنة بين عنصرين"، كما "أن الأشياء قد أصبحت بفضلها متميزة، محافظة علي وحدتها وقابلة للتحليل والتركيب" وهو ماأتيح، كما يذهب فوكو، للفكر الغربي أن يصل إلي مرحلة الحكم والتقويم.(٣) أضف إلي ذلك أنه إذا كانت العلامة تميل إلي الاعتباطية، فهذه - من غير شك- اعتباطية وظيفية، إذ أن الذي كان يعني به الكلاسيكيون هو إنشاء لغة تحليلية وتركيبيةجيدة حتي يتمكنوا من صياغة القوانين المكونه للطبيعة إلا أنه إذا كانت العلامة اللغوية تبتعد عن الطبيعة لتصبح في إطار النسق المعرفي الكلاسيكي مجرد علاقة بين فكرتين، فهذا لايعني قدرتها علي التمتع بصفتها العلامية بطريقة مستقلة، بل علي العكس إن هذه الصفة لاتتم لها إلا بفضل قدرتها التمثيلية معني ذلك، أنه لن يكون هناك بين العلامة ومضمونها أي وسيط ولن تقوم أية عتمة أوظلال.وكما كان علم العلامات يلتقي، خلال عصر النهضة، بفن التأويل عبر

مبدأ التشابه، فإن هذا العلم نفسه سوف يلتقي، في العصر الكلاسيكي، بتقنية التفسير ... وبفضل السر التمثيلية البحتة المناطة به. وليس من شك، في أن غياب أي نوع من الغور بين الدال والمدلول في الفكر الكلاسيكي سيشكل سمته المتميزة بالنسبة للفكر الغربي الحديث، وذلك بالقدر الذي سيحتاج فيه هذا الأخير إلي نظرية كاملة للدلالة لتفسير الفجوة القائمة بين الدال والمدلول، والتي يناط بها عمل الشعور ونشاطه.(٤)

إن الوظيفة التمثيلية تصبح، من ثم، دعامة اللغة في العصر الكلاسيكي.وليس من شك، في أن "الفعل" سيقوم فيها بدور بالغ الأهمية، خاصة فعل الكينونة الذي يناط به تجاوز العلامات اللغوية بما تمثله من ضرورة اتفاقية بحته إلي أساس وجودها الفكري. لاغرو، من ثم، أن تكون وظيفة الفعل هي الصيغة التي تتواجد من خلالها اللغة، وهي القدرة علي التمثيل بواسطة العلامات والربط بين هذه العلامات. إلا أن هذا لا يجب أن يحجب أهمية "الإسم" الذي يشكل "مادة"الجملة وأساسها القائم بذاته، بل ومحورها الذي تلتف حوله بقية عناصرها من صفات وأدوات ربط ووصل وغير ذلك.

إن الإسم، في الواقع، هو محور النظرية الكلاسيكية للغة من حيث كون "التسمية" هي مبدأ التصنيف العام الذي يعد بجانب النظام الرياضي(mathesis)الخاص بقياس المقادير والأحجام والكميات والامتداد، القاعدة الأساسية لجدولة الكائنات وتصنيفها وفقا للنظام العقلي العام. ذلك أن الإسم من حيث هو "ملتقى كل وظائف اللغة" والوسيلة التي تتيح ترجمة العملية التمثيلية في صورة جمل وأحكام، يعد ركيزة الخطاب وشرط إمكانية اتصال الخطاب بالمعرفة. وإذا كان الخطأ والصواب لايرتبطان أساسا، كما يقول الكاتب، به وإنما بالحكم، أي بالتصور السليم الواضح لعلاقات النظام الفكري،

فإن الحكم لايبرز إلا بواسطته وبواسطة الجملة المرتبطة به. ومن هنا ينشأ التلازم بين الفكر السليم والعمل الذهني المطابق للمنهج، وبين اللغة التحليلية الدقيقة المنظمة التي لاتحدث فيها إنزلاقات أو تمويهات قائمة على التوليفات الخيالية والتجريدات أو التعميمات المتسرعة.(٥)

من ثم، أيضا، في نظر فوكو، هذه "الإسمية"(nominalisme) الجذرية التي تطبع الفكر الفلسفي الغربي منذ "هوبز" وحتى تالف فلسفة "الأيديولوجيين" في أوائل القرن التاسع عشر، وفي فلسفة تقوم أساسا على تحليل اللغة والشك في كل ألوان العبارات والمصطلحات التي تقوم على التجرد والتعميم، كما يبرز ذلك عند "بركلي"و"هيوم"و "كوندياك". مع افتراضها، في الوقت نفسه، قدرة اللغة، كأداة بالغة الشفافية والوضوح، على تسمية الأشياء والتعبير عنها بصورة مطابقة في إطار نسق من العلامات المصطنعة. ولكن إذا كان الإسم يمثل، على هذا النحو، غاية الخطاب، حيث أن تسمية الأشياء هي إدراكها، فإنه يمثل - لامحالة- نهايته في الوقت نفسه. ولعل ذلك يفسر لنا، كما يذهب فوكو، إزدهار "الريطوريقا" وتضخمها في الأدب الكلاسيكي، وذلك رغبة في تأجيل لحظة النطق بالإسم، والتمهيد لظهوره المرتقب بحشد من الصور والتشبيهات الخيالية التي لا تني تشوقنا إليه وإلى مابعدنا به من نشوة اللقاء والكشف إن هذا - كما يبدو- هو مايتحقق في عالم "ساد" الأدبي البالغ العنف، حيث يلتقي الإسم، وهو مادة اللغة وغايتها، بعالم الرغبة لقاءا يذوبان فيه إلى درجة انغلاق اللغة على نفسها، وانفصالها في كينونة غريبة عن وظيفتها التمثيلية المنوطة بها، وعن كل مايربطها باسقاطات الواقع والفكر.(٦)

إلا أن قيام هذه "الكينونة" لم يتم بصفة قاطعة، كما يبدو، إلا مع ظهور

علم "الفيلولوجيا" الذي أثر في تكوينه تأثيرا حاسما بالنموذج الوظيفي السائد في علم الحياة، ومناط ذلك أن العملية التمثيلية لم تعد هي التي تشكل بمفردها خصوصية العلامة اللغوية ، أو تحدد مكانتها داخل تركيب الجملة وعلاقتها ببقية العناصر اللغوية فالكلمة، حتى وإن كان لها دور تصويري أو اخباري لاترتبط بنظام عقلي أو منطقي للعلامات بقدر مارتبط بظروف تاريخية خاصة عملت على تشكيل صورتها، وتحديد الأصوات التي تكونها، وانشاء القواعد التي تحكم تحولاتها، أو بمعنى آخر، إن ما يستخلصه فوكو من "الفيلولوجيا" هو رفضها لفكرة ربط اللغة بنظام التصورات، وإخضاعها، بدلا من ذلك، لضوابط النظم النحوية والصرفية والصوتية التي تشكل "عاملها" التاريخي، إن صح هذا التعبير، كما تشكل معبرها الأساسي نحو الواقع وتصوراته.

إن إدخال مفهوم "التاريخ" إلى مجال اللغات بغرض دراسة التحولات والتغيرات التي تصيب هياكلها ونظمها التكوينية ماكان ليتم، في نظر الكاتب، إلا ملازما لدخول مفهوم التطور في مجال علوم الحياة، وهو مايفترض ضمنا مقارنة اللغات بالكائنات الحية ذات التنظيمات العضوية والوظائف الحيوية المرتبطة بها، إلا أنه إذا كان من الممكن اعتبار مفهوم التاريخ أو "التاريخية" بمثابة الخلفية الأركيولوجية التي قام عليها كل من علم الحياة وعلوم الفيلولوجيا، فإن هناك فرقا جوهريا يظل، مع ذلك، قائما بين المجالين. ذلك أن تاريخية حياة الكائنات، كما يقول الكاتب، لاتقوم إلا بمساندة الحياة الخارجية المحيطة بها، بينما تاريخية اللغة هي اكتشاف لماهيتها الداخلية، أي لما يؤسسها كموضوع قابل للدرس والتحليل مثل بقية الموضوعات، وبالتالي من غير اعتبار لما تحمله من تصورات ورؤى انسانية تواترت عبر العصور.

غير أن فوكو يعتقد أن تحويل اللغة إلي موضوع للدراسة والبحث ماكان ليتلاءم كلية مع الطبيعة الخاصة للغة، وهي كونها، بجانب الدور المعرفي الذي تلعبه، أداة اتصال وتعبير عن الإحساس والشعور، وهو الأمر الذي يدفع إلي صياغتها في شكل خطاب، ومن ثم خضوعها، أردنا أم لم نرد، لذات المتكلم. أضف إلي ذلك أن إخضاع اللغة للدرس والتحليل قد قابله نوع من النزعة النقدية، وخاصة بعد ربط اللغة، في المنظور الفيلولوجي، بعادات الشعوب وتقاليدها وتراثها الروحي وعقليتها المتشكلة عبر التاريخ. من هنا أصبح ينظر إلي اللغة لا كنتاج لإرادة الأفراد، وإنما كإطار قبلي يعمل علي تشكيل عقول الشعوب. وأخيرا، يعتقد فوكو أن تموضع اللغة، عبر الدراسات الفيلولوجية، مع مايفترضه هذا التموضع من إبراز لخصوصية اللغة وتحديد لكيانها وماهيتها، كان عاملا حاسما في الكشف عن الطبيعة الأدبية للاستخدام اللغوي الذاتي، وهو الأمر الذي كان معروفا بالسليقة منذ القدم، بفضل بعض النصوص الفذة التي مازالت تقاوم الزمن. وليس من شك في أن كشف هذا "الكيان اللغوي"، كما يسميه فوكو، سوف يتجلي من خلال عملية الخلق الأدبي، لا من حيث ارتباطه بوظيفة تقليد الواقع أو محاكاة أحداثه، ولا من حيث تقديمه مرآة صادقة لنفسية الفنان أو للظروف التاريخية والاجتماعية التي يعيش فيها، وإنما من حيث التحامه بعملية الكتابة وقدرتها اللاواعية علي تفجير القوي الخاصة بالكلام. وليس من شك في أن مايقصده فوكو هنا ، هو هذا التحول الكبير الذي تشهده اللغة الأدبية بعد تخلصها من منظور المحاكاة والوضوح العقلاني اللذين كانا يهيمنان علي الرؤية الكلاسيكية للوجود. إذ أن وظيفة الأدب لم تعد، من الآن فصاعدا، تقوم علي مطابقة الخطاب الأدبي للفكر السائد، ومن ثم ترسيخ القيم الفوقية في صورة قواعد عامة صورية تحكم الذوق، وتشكل الرؤية المطلقة للحقيقة والخير والفضيلة. إن الأدب، كما يقول فوكو، سوف يتمركز حول نوع

من "اللغة الازمة" التي لايعنيها ما تحطمه من أعراف وأحكام مسبقة، ولا ما قد تفجره من طاقات غير منظورة طالما أنها كامنة فيها، وبالتالي في الإنسان، إن هذه اللغة لن تخضع لقواعد التصوير أو التمثيل، إذ أن همها الأكبر هو تحقيق ذاتها الخالصة ، وإدراك وجودها كعملية كتابيةمستقلة لاغاية لها إلاتأكيد حركتها المولدة لجوهر كل أدب مبدع (٧)

هوامش البحث

(١) Roland Barthes, Le degré zéro de l'écriture. Paris, Ed.du seuil (points), 1972.

(٢) Michel Foucault, Les mots et les choses,Paris Gallimard, 1966, pp. 42-44

(٣) المرجع نفسه، ص ٧٥

(٤) المرجع نفسه، ص ٨١

(٥) المرجع نفسه، ص ١٣٢

(٦) المرجع نفسه، ص ص ١٣٣ - ١٣٤

(٧) المرجع نفسه، ص ص ٢٩٣ - ٣١٣ .